***جامعة أبي بكر بلقايد***

***كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية***

***الأستاذ : محمد بلعربي***

***قسم: الفلسفة***

***مقياس : نظريات الاتصال و التواصل***

**محاضرة :إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة**

***إشكالية التواصل***

**غاستون باشلار**

الفلسفة الآن هي، فلسفة الغرب، يصح هذا الحكم على عصور طويلة، ولكننا منشغلون الآن بآنيتنا وعصرنا الحاضر. الأفق الفلسفي هو الأفق الغربي، رغم أن الأفق الفلسفي غير قابل للضبط مكانيا ولا زمانيا. ولكن كل متابع للمنجز الفلسفي في العصر الحديث يعلم أنه دائما في الغرب. كأننا هنا نبحث عن مشروعية لفتح بوابة هذا الكتاب مع الدكتور عمر مهيبل لنلج منه إلى الفلسفة الغربية المعاصرة. تبدو المسألة قريبة جدا من البداهة حين نقول أن الباحث عند تلمس معرفته من بابها الفلسفي لابد أن يولي عقله جهة الغرب. لن أنشغل هنا بمسائل من نوع الاستلاب للغرب والمحافظة على الخصوصية بل سأقفز سريعا إلى أفق التجربة الفلسفية في الغرب، حيث تعمل العقول بشكل مدهش بحياة كاملة لإبداع الجديد من الأسئلة والجديد من محاولات الإجابة بحيث يبدو المشهد الفكري منبثقا دوما ومتفتحا على المزيد المزيد من الآفاق. في وقت انسجنت كثير من العقول هنا في دوائر وهمية منذ زمن سحيق.

من هنا جاء الاهتمام بهذا البحث الهام للدكتور عمر مهيبل الذي كان قد زود المكتبة العربية بعمل جاد بعنوان "من النسق إلى الذات : قراءة في الفكر الغربي المعاصر". وها هو الآن يطرح بين أيدينا عمله الجاد حول إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة.

وإشكالية التواصل إشكالية حقيقية في الفكر الفلسفي عموما وفي الفكر الفلسفي المعاصر أيضا. يكفي للتدليل على هذه القضية أن نذكر أن هذه الإشكالية مثلت مبحثا أساسيا في مبحث أربعة من كبار الفلاسفة المعاصرين : باشلار وفوكو من فرنسا وهيدجر وهابرماس من ألمانيا. صحيح أن إشكالية التواصل تأخذ فهما وشكلا خاصا في كل سياق من السياقات السابقة إلا أنها في جذرها الأساسي الأولي تشترك في كثير من الخصائص يجعل من الممكن أن تدرج ضمن مبحث واحد.

لا يعطي عمر مهيبل مفهوما "مثاليا" للتواصل، مدركا إشكالية هذا الأمر، إشكالية الحصر والتحديد، ويفضل أن يبقى المفهوم مبثوثا في النماذج المطروحة للعرض والتفكر، إلا أنه يمكن أن نستل تحديدا أوليا لمفهوم التواصل بوصفه "فعل، بل مجموعة من الأفعال ( المعرفية والاجتماعية ) تستند إلى خطاطات أفعال بواسطة سنن أو رموز يتم التفاهم من خلالها شفاها أو كتابة".

يتوسل عمر مهيبل في دراسته هذه بالمنهج النقدي موظفا له بوصفه المنهج الذي يمنعنا من الوقوع في الدوغماتية ( الوثوقية ) والتبسيط في آن واحد. ومنهج مهيبل منهج مرن بقصد المراوحة بين التواصل واللاتواصل، ولعل هذا ما سيمكنه من الاشتغال والأداء في سياقات فلسفية مختلفة ومتباينة إلى حد كبير. كما ذكرنا سابقا أن الباحث قد اختار لإجراء هذه الدراسة أربعة نماذج فلسفية متتالية زمنيا تبدأ بالفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار ( 1884- 1962) ثم الفيلسوف الألماني مارتن هيدجر ( 1889- 1976) ثم الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو ( 1926- 1986) وأخيرا الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس ( 1927- )

في هذه الحلقة سنهتم بالجزء المخصص في هذا الكتاب للفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار المعروف بفيلسوف القطيعة، الوجه الآخر للاتصال. يقول عمر مهيبل في شرح أسباب اختياره لباشلار بالذات، رغم أن الكثير كانوا يتوقعون دراسة برغسون وهو فيلسوف اتصالي بامتياز، يقول مهيبل "لقد رأينا منهجيا أن البداية كرونولوجيا ومعرفيا إنما تكون من الفيلسوف غاستون باشلار الذي يجسد في تحديدنا المنهجي الوجه الآخر لجدل التواصل وهو اللاتواصل، انطلاقا من أن فلسفته شكلت منعطفا حاسما ضمن المنظومة الفلسفية الفرنسية المعاصرة. باشلار يرى أن المعرفة العلمية الحقة، الموضوعية، إنما تبدأ عندما يستطيع الفكر العلمي قطع صلته بهذه المعرفة الأولية الساذجة قطعا جذريا".

**من هو باشلار ؟**

بشكل سريع باشلار هو فيلسوف علم ( أبستمولوجي ) يهتم بشكل أساسي بالقيام بتحليل نفسي للمعرفة العلمية، بمعنى أن باشلار يطبق مفاهيم علم النفس على المعرفة العلمية بحكم أنها متأثرة أيضا باللاشعور والكبت وغيرها من الفرضيات النفسية، وهذا ما سنتوسع فيه لاحقا. ولد باشلار في بار على نهر الأوب سنة 1884وبعد دراسته الثانوية عمل موظفا في البريد حتى سنة 1913حين حصل على الليسانس في الرياضيات والعلوم. ثم عين مدرسا للفيزياء والكيمياء في مدرسة ثانوية ثم حصل على الدكتوراه في الآداب ( قسم الفلسفة ) من السوربون سنة 1927.وفي سنة 1930أصبح أستاذا للفلسفة في جامعة ديجون ثم عين أستاذا لتاريخ العلوم وفلسفتها في قسم الفلسفة بكلية الآداب( السوربون ) بجامعة باريس واستمر في هذا المنصب إلى وقت تقاعده 1954.وتوفي سنة 1962في باريس.

في ملاحظات أولية يسجلها عمر مهيبل على فلسفة باشلار يصل إلى أن قيمة هذه الفلسفة تتمثل في رفضها لا غير، رفضها للأنساق الفلسفية المثالية والعقلانية ونقدها. إلا أن قراءة باشلار تظهر أن الفلسفة التجريبية البحتة أيضا كانت محلا لنقدها ورفضها، فقد كان في منطقة وسطى بين العقلانية المثالية والتجريبية المثالية أيضا، يسمي باشلار هذه المنطقة ب "العقلانية التطبيقية" وعنون بها كتابه الذي صدر في 1948وترجمه للعربية د. بسام هاشم بنفس العنوان وطبعت هذه الترجمة سنة 1984والعقلانية التطبيقية فلسفة تقوم على الحوار بين العقل والتجربة. ترفض الانطلاق من مبادئ قبلية كما ترفض أيضا ربط الفكر العلمي بمعطيات الحس والواقع وحدها . وهي تقوم كما يوجز مهيبل على أربعة مبادئ تقف ضد مفاهيم الفكر العلمي القديم وهي : أ- ليس ثمة عقل ثابت يحكم جميع أنماط معرفتنا. ب- ليس ثمة منهج شامل. ج- ليس ثمة واقع بسيط يقتصر العالِم على معاينته وشرحه بل هو معقد ومركب من عناصر متعددة تشكل الظواهر المشاهدة عينة واحدة ضمن بنية متكاملة من الظواهر. د- على فلسفة العلم أن تفتح المكان للأبستمولوجيا بوصفها الدراسة النقدية لتكوين المفاهيم العلمية الرئيسية وتوظيفها في حقلها الخصوصي وليس بالنسبة إلى نظرية المعرفة بشكل عام.

حين نراجع الفترة التي عاشها باشلار نجد أنها فترة خصبة جدا علميا وشهدت الكثير من الفتوحات العلمية الهائلة نذكر هنا نظرة النسبية ونظرية الكوانتم وغيرها من النظريات التي غيرت نظرة العالم للوجود والحياة. إثر هذه الفتوحات قام باشلار بالتفاتة تجاه الفلسفة معاتبا لها لسكونها وقرارها وعدم قدرتها على مواكبة النتاج العلمي وقفزاته الهائلة. ولذا تصّور على امتداد فلسفته أن مهمة الفلسفة الآن الإنصات للأسئلة التي يطرحها العلم وليس بناء الأنساق المجردة والمغلقة التي تبحث في تطابق الفكر مع تصوراته المبدئية.

من هنا بالذات تبرز قيمة فلسفة باشلار، أي من وعيها الحاد بالتفاوت الذي وقع بين خطي سير الفلسفة والعلم. ولأنه لا غنى لأحدهما عن الآخر فإن هزّ الفلسفة لتنفض عنها غبارها وتلحق بالخط العلمي كان هو الهدف الأول لفلسفة باشلار. إنجاز هذه المهمة يراه باشلار عن طريق"الأبستمولوجيا" ومهمتها الأساسية "البحث في التأثير الذي يحدثه تطور المعارف على بنية الفكر" وباستفاضة نعثر عليها في كتابه "تكوين العقل العلمي" ( ترجمه للعربية خليل أحمد خليل ) يعتبر باشلار مهمة الفلسفة العلمية "التحليل النفسي للاهتمام، تقويض كل نفعية مهما كانت متخفية، ومهما ادعت الترفع، ولفت العقل من الواقعي إلى الصنعي، من الطبيعي إلى البشري، ومن التمثل إلى التجريد". الأبستمولوجي عند باشلار له مهمة محددة هي عبارة عن التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية. تحليل نفسي يكون موضوعه الأساس لا شعور الباحث في مجال العلوم بينما يتمحور هدفه حول اكتشاف جملة العوائق التي تعيق السير الحسن لعملية المعرفة. وهي ما يسميها باشلار "العوائق الابستمولوجية".

الأنساق الفلسفية القائمة غير قادرة على فهم التفكير العلمي بسبب التعارض بين خصائصها وخصائص التفكير العلمي. تبرز أساسا في كونها، أي الأنساق الفلسفية، أنساق غائية مما يعني انغلاقها فيما لا ينسجم مع غايتها المحددة. فيما يمتاز العلم بانفتاحه على كل الآفاق. كما أن الأنساق الفلسفية تعاني مشكلة لغوية فلغتها عاجزة عن تحديد مقاصد العلماء تحديدا حقيقيا أو أن تبلور رؤية واضحة لمفاهيم العلم.

**العائق الأبستمولوجي**

ذكرنا أن باشلار يجعل للابستومولوجيا مهمة أساسية هي القيام بتحليل نفسي للمعرفة الموضوعية. انطلاقا من فرضية أساسية في علم النفس وهي "اللاشعور"، فكما أن للنفس الإنسانية جانب اللاشعور فإن العمل العلمي جانب مهم أيضا لا يكون موضوع وعي. والعوائق الابستمولوجية ليست عوائق تطرأ على العملية العلمية من الخارج وليست نتيجة لا للشروط الخارجية لعملية المعرفة ولا للحواس والفكر كأداتين ذاتيتين لبلوغ المعرفة عند الإنسان، بل هي منبثقة من صميم المعرفة العلمية، وتبرز في الشروط النفسية للمعرفة تبعا لضرورة وظيفية، وذلك بمجرد قيام العلاقة بين الذات والموضوع، فالمعرفة العلمية هي التي تنتج عوائقها الابستمولوجية بنفسها. يقسم باشلار كما يورد مهيبل مراحل تكوين العقل العلمي إلى ثلاث مراحل وحين راجعنا مع باشلار في كتابه "العقلانية التطبيقية" وجدناها يحددها بأربع، وعند التدقيق وجدنا أن الاختلاف شكلي، حيث ضم مهيبل المرحلة الأولى والثانية في مرحلة واحدة. المرحلة الأولى وتمثل الحالة ما قبل العلمية وتشمل العصور القديمة و القرون الوسطى وبداية عصور النهضة وهي المرحلة التي ينشغل فيها العقل بالصورة الأولى للظاهرة ويستند إلى كتابات فلسفية تمجد الطبيعة وتؤمن بوحدة العالم. المرحلة الثانية : وتمثل الحالة العلمية ابتداء من أواخر القرن الثامن عشر وتشمل القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. العقل في هذه المرحلة يعمل على إضافة الأشكال الهندسية إلى التجربة الفيزيائية معتمدا فلسفة بسيطة وواضحة. إلا أن العقل في هذه المرحلة يشتمل تناقض واضح فهو ينظر إلى المعرفة المجردة نظرة يقينية بمقدار ما يتمثل هذا التجريد بوضوح في حدس محسوس. المرحلة الثالثة والأخيرة تمثل الفكر العلمي الجديد وتبدأ هذه الفترة من 1905مع هزّ النسبية لأركان العلم الكلاسيكي ونجد في هذه المرحلة أن العقل والتجربة متلازمان يتمم كل منهما الآخر بشكل يجعل المعرفة أكثر وضوحا.

ويستنتج باشلار من خلال قراءته للمعرفة العلمية عدد من العوائق الابستمولوجية. العائق الأول : التجربة الأولى، أي التجربة السابقة على النقد، التجربة الأولى التي تمت في ظروف متقدمة زمانيا مما يفقدها النقد الناتج من التراكم المعرفي. إنها العائق الأول وإن لم يتجاوز وينقد ويكشف خطأه الأكيد فإنه سيبقى عقبة في وجه التطور العلمي. العائق الثاني : عائق التعميم يقول باشلار "إنه ما من شيء عمل على كبح تطور المعرفة العلمية كما فعل المذهب الخاطئ للتعميم الذي ساد من أرسطو إلى بيكون، والذي ما يزال بالنسبة لعقول كثيرة المذهب الأساس للمعرفة". العائق الثالث : العائق اللفظي ويعني أن هناك ألفاظا تتمدد أثناء استخدامها فتصبح تدل على أشياء خارج دلالتها الأصلية مما يجعل من استخدامها مشوشا ومبهما إلى حد كبير. العائق الرابع : هو العائق الجوهري. أي فكرة الجوهر التي تسببت في توهان العلماء لعصور طويلة بحثا عن جواهر الأشياء بدلا من ظواهرها. العائق الخامس : العائق الإحيائي ويعني به إدخال بعض العلوم في مجالات غير مجالاتها التي تعمل فيها خصوصا إدخال الأحياء ( البيولوجيا ) في علم الكيمياء والفيزياء.

القطيعة الابستمولوجية القطيعة الابستمولوجية مفهوم شهير تم تشغيله في كثير من المجالات فإن كان باشلار انطلق به من الفكر العلمي إلا أثبت فعالية واضحة في المجالات الفلسفية والآداب والأنثروبولوجيا و الدراسات الماركسية بشكل واضح. من أبرز من وظّف هذا المفهوم في على الساحة العربية محمد عابد الجابري في نقد العقل العربي. هل يمثل خط التقدم العلمي خطا متصلا من أوله إلى آخره وكل مرحلة تمثل حلقة في هذا الخط. أم أن هناك انقطاعا وانفصالا في هذا التاريخ من التقدم العلمي. يذهب باشلار للقول بالقطيعة فهو يرى أنه لا يمكن أن نجد أي ترابط أو تواصل بين القديم والجديد، أي ما بين ما هو بسيط وما هو مركب أو بين ما هو علمي وما هو غير علمي، إنهما عالمان من الأفكار، كل منهما غريب عن الآخر. والقطيعة الابستمولوجية بهذا المعنى خاصية نوعية لتطور العلوم، فتاريخ العلوم عبارة عن سلسلة من "الحقائق" و "الأخطاء" المتعاقبة. وفي عبارته الشهيرة "تاريخ العلم هو أخطاء العلم". في فترة من فترات التاريخ تحدث قفزة هائلة تقطع مع مناهج وآليات التفكير السابقة لها وتفتتح مرحلة جديدة من مراحل العلم. غاليلي هو أول من قطع الصلة بالفكر العلمي القديم وتخلى عن مفاهيمه وأساليبه وأسسه مبتدئا ثورة جديدة في تاريخ العلم. لا يمكن أن نقول أن غاليلي امتداد لما سبقه.

ويميز باشلار بين مستويين من القطيعة. المستوى الأول : قطيعة بين علوم الفكر العلمي الجديد وبين علوم الفكر العلمي القديم. المستوى الثاني : قطيعة داخلية تقع ضمن صيرورة الفكر العلمي ذاته، أي أن هناك نظريات جديدة تحقق طفرات نوعية في مسار الفكر العلمي ذاته لا يمكن فهمها على أنها استمرار أو تطوير للعلم السابق لها. مثال الهندسات اللاأوقليدية في الرياضيات. وكما يقرر مهيبل نقول أن مفهوم "القطيعة الابستمولوجية" ما هو في النهاية إلا تعبير عن اللاتواصلية في العلوم وتفسير لنشأة الثورات العلمية التي تحدث داخل العلم.

جاءت فلسفة باشلار لردم الهوّة بين العلم والفلسفة فهل حققت هذا الهدف ؟ يرى عمر مهيبل أن فلسفة باشلار قدمت خطوات مهمة في هذا الهدف عن طريق نقد وهدم النماذج السائدة أكثر من بناء جديد وتقديم بديل. ولعل مهمة بهذا المستوى يكفي من فيلسوف واحد البدء بخطواتها الأولى. أما فيما يخص إشكالية التواصل، الإشكالية التي جاء الكتاب لبحثها فمن الجلي الآن أن باشلار ينتمي للفضاء المعرفي المؤكد على اللاتواصل والانقطاع. كما يمكن أن نضيف أن فلسفة باشلار ذاتها كانت نموذجا للانفصال عن الأنساق الفلسفية السابقة لها.